من الأدب الرمزي

الزمن الساحر . . . !

للأســـتاذ سيد قطب

[illegible] الزمن !

ما أعجبك ! ما أقدرك !

إنى أراك اللحظة ـ أو يخيّـل إلىّ أننى أراك ، أو تخيّـل إلىّ يخيل إلىّ أننى أراك ! ـ هنالك قابعاً مُنزوياً وراء منسجك الخفى ، تطل بعينيك العميقتين النافذتين من خلف المنسج [illegible] منذ الأزل ، تنسل خيوط الكون وتنسجها ، فى دأب لا ينى ولا يفتر ، ونظام لا يتقدم ولا يتأخر

إنك هنـاك فى كل ذرة سابحة فى الفضاء ، أو غائصة فى الأعماق ؛ وفى كل خطرة نابضة فى الفكر أو كامنة فى الضمير ؛ وفى كل ومضة مشعة فى الأفق أو مستكنة فى الذريرات . . .

وأنت هناك فى البرعم النامى ، والجرح المندمل ؛ وفى الأمنية السانحة والذكرى المتوارية ؛ وفى الأمس والغد ؛ وفى الليـل والنهار ؛ وفى الغدو والأسحار ؛ وفى الأرض والسماء ؛ وفى كل مكان . . . ولـكن أحداً — أيهـا الساحر القادر — لا يحس أنك هناك !

إنك لتلأم الجرح فى اللحظة التى تثغره ؛ وأنت هناك فى أعماقه تنسج الأنسجة وتنشىء الذرات ، وترتفع بغوره نسجاً فشيئاً ، وإذا الطعنة الغائرة قشرة عالقة ، ربما خيل إلى الرائى أن وراءها ثغرة ؛ وإذا القشرة نفسها تسقط بعد لحظات ، وكأن لم يكن جرح ولا ثغرة ولا قشرة !

وكذلك تصنع بالجروح الغائرة فى حنايا القلب وشعاب الضمير . . . !

وإنك لـكامن هناك وراء البرعم المستكن فى البذرة الساكنة تدفعه فى رفق ، وتمده فى هدوء ؛ ثم تنبثق به إلى الضياء نبتة ناحلة كابتسامة الوليد ؛ ثم إذا هو فنن صغير ، ففرع كبير ، فدوحة باسقة ، ذات أوراق وأزهار وثمار . . . ثم ما ذا — أيها الساحر القادر — ثم إذا هى خشبة خشنة اللحاء يابسة اللباب ؛ ثم إذا هى وقود النار ؛ ثم إذا هى شعاع ذاهب ، وهباب راسب. وأنت هناك من خلفها دائب فى الإبلاء والإنشاء ! . . .

وكذلك تصنع بالأمل البازغ ، والحب الوليد . . . !

إنك لا تضيع لحظة واحدة ! ويحى ! وما اللحظات لديك ؟ ليخيل إلىّ أنك تسخر منا ونحن نقسم الوقت لحظات ! وكيف نعرف حدودها فنقول : من هنا تنتهى اللحظة الغابرة وتبدأ اللحظة الحاضرة ! والوقت خيط طويل يلفه لولب الزمن فيمر بنا أو نمر به بلا توقف ولا فواصل ولا حدود ؟ . . . ما اللحظات والثوانى والدقائق والساعات ؟ ما أولها وما آخرها ؟ . . . ما من أول لها ولا آخر إلا فى أوهامنا نحن أبناء الفناء !

إنك هناك وراء منسجك الأبدى تبلى وتجدد فى آن ، بعيداً عن الحس والوعى ، بعيداً عن التأمل والملاحظة ، بعيداً عن الشك والريبة . وربما خيل لبعض السذج أن يرقبوك فى عملك الدائب ، فإذا أنت تبدو لهم سا كناً صامتاً كلما أمعنوا فى الوعى والرقابة ، بينما أنت تعمل عملك ، تنسل وتنسج فى كل شىء ، حتى فى وعيهم ورقابتهم وهم لا يشعرون !

أيها الساحر القادر . . . إنك لتحتفظ دائماً بسر اللحظة الحاضرة ، فلا تدع عيناً ترقبها ، ولا حساً يدركها ، ولا فكراً يؤولها ، ولا نفساً تلهمها . . . إنها لك وحدك . تنسل خيوطها وتنسج سواها ، ويدك التى تنسل الخيط القديم هى التى تنسج الخيط الجديد ، موصولاً هذا بذاك ، فلا مبدأ ولا نهاية ولا فاصل بين الخيطين تدركه العين أو الضمير . . . فإذا خرجت من منسجك أبحتها لحظة عابرة للأبصار والأفـكار ، ربما تنسل وتنسج نفس هذه الأبصار والأفـكار

وقد يحاول بعض السذج أن يقفوا دورتك ، استبقاء للحظة يحبونها أو تفادياً من لحظة يرهبونها ؛ وقد يتشبثون بالأوهام ، ويثبتون أقدامهم بالوقت والمكان ؛ وإذا أنت فى غفلة عنهم تمر بهم ، وتنقل أقدامهم وأوهامهم ؛ وأنت تنسل وتنسج خيوط الأقدام والأوهام !

وكم مرة خيل إليهم أن هناك مفاجأة وطفرة . وما كان من ذلك شيء ، إنما كنت أنت هناك ، وراء المنسج ، في صومعتك الأزلية ، تبلي وتجدد ، وتفني وتخلق ، وتنسل وتنسج ؛ وهم عنك في غفلة . ثم استيقظوا أو خيل إليهم أنهم استيقظوا ! فهالهم ما أبليت وما جددت ؛ وصاحوا مشدوهين كالأطفال ، وقذفوا في وجهك بعلامات التعجب والاستفهام بينما أنت دائب على منسجك تبلي وتجدد ، حتى في ذلك التعجب وهذا الاستفهام !

* * *

أيها الزمن !

ما أرحمك ! ما أقساك !

إنك لتلأم الجرح وتفتح البرعم ؛ ولكنك تبلي الكيان وتذوي الحياة . وإنك لتمسح على الألم وتزوي الوجه الرعيب ، ولكنك تطوي اللذة وتحجب الوجه الحبيب

إنك لتمنحنا الجديد وتهبنا الطريف ؛ ولكنك تسلبنا القديم وتحرمنا التليد ؛ لا بل أنت تسرق منا هيا كلنا ونفوسنا ، وتخطف ذراتنا وخواطرنا ، وأيًا كان ما تعوضنا فإن تعويضك محدود بالعمر صائر إلى نفاد ، وفقداننا إلى غير رجعة ولا يستعاد

من ذا الذي يستطيع أن يقول في لحظة ما : أنا ... أنا ... أنا الذي كنت منذ لحظة ... إن كل شيء قد تغير منذ اللحظة الفائتة ، فليس هو من كان هناك ... إنك في هذه اللحظة الخاطفة نسلت منه خيوطاً ، ونسجت فيه خيوطاً !

أين الشموس الغاربة وراء الآباد ؟ أين الليالي السارية في مجاهل الأبد ؟ أين النجوم مندمجة من السديم ؟ أين مولد الأرض بجانب منابع الزمن ؟ أين أول فجر وأين أول حي على هذه الكرة السابحة في الفضاء ؟ أين إنسان الغاب في الكهوف والآجام ؟ أين الزلازل والأعاصير ؟ أين النسائم والنفحات ؟ أين الوسوسة والخرير ؟ أين الرفرفة والصدحات ؟ أين البسمات التي رفت على الشفاه ؟ أين العبسات التي غضنت الجباه ؟ أين الهواجس والأفكار ؟ أين الرغائب والأوطار ؟ أين الحب والبغض ؟ أين الهيام والسلوان ؟ ؟ ...

أين ... أين ... ؟ بل أين كلمة « أين » هذه التي لفظتُها منذ لحظة ؟ بل أين المقطع الأخير من « أين » الأخيرة ؟ ...

لقد نسلت خيوطها ونسجت سواها ... وهأنت ذا دائب على المنسج الأبدي الجبار !

هأنذا أعيد تلاوة هذه السطور التي خطتها يدي ؛ ولكنها ليست هي كما خطتها ، ولست أنا كما كنت لحظة تسطيرها ... إنك نسلت ونسجت في خيوط يدي ونفسي ، وفي حركاتي وخواطري ؛ وفي خيوط الصحيفة التي حوتها ، وفي خيوط المداد الذي أثبتها ... وهأنت ذا لا تزال تنسل وتنسج في هؤلاء جميعاً ولن يكون شيء منها كما كان مرة أخرى !

* * *

أيها الزمن !

ما أعجبك ! ما أقدرك ! ما أرحمك ! ما أقساك ! ...

« حلوان » سيد قطب